

قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقي فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغى إليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها ، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل ، ويصوره في أبلغ صورة : قصص القرآن الكريم .

معنى القصص

القصص : تتبع الأثر ، يقال : قصصتُ أثره : أى تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١) أى رجعا يقصان الأثر الذى جاء به ، وقال على لسان أم موسى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (٢) أى تتبعى أثره حتى تنظري من يأخذه ، والقصص كذلك : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) والقصة : الأمر ، والخبر ، والشأن ، والحال .

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبؤات السابقة ، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضى ، وتاريخ الأمم ، وذكر البلاد والديار ، وتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه .

* * *

(٢) القصص : ١١

(٤) يوسف : ١١١

(١) الكهف : ٦٤

(٣) آل عمران : ٦٢

أنواع القصص فى القرآن

والقصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء : وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذّبين ، كقصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم : كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وطالوت وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ : كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك .

* * *

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآنى فوائد نجمل أهمها فيما يأتى :

١ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التى بُعثَ بها كل نبي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله : ﴿ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

(١) الأنبياء : ٢٥

(٢) هود : ١٢٠

٣ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

٥ - مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحذيره لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره في النفس : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

* * *

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن ، وتُعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك ، ومن حكمة هذا :

١ - بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها : فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر ، وتُصاغ في قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى .

٢ - قوة الإعجاز : فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدى .

٣ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبّرها في النفس : فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام ، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل

(٢) يوسف : ١١١

(١) آل عمران : ٩٣

الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تُكرَّر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

٤ - اختلاف الغاية التي تُساق من أجلها القصة : فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

* * *

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدَّم رسالة لنيل درجة « الدكتوراة » كان موضوعها : « الفن القصصي في القرآن » ^(١) أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية ، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة - وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب ، ونُشر في مجلة « الرسالة » وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي ، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه ، وصدر الأستاذ « أحمد أمين » تقريره بالعبارة الآتية :

« وقد وجدتُها رسالة ليست عادية ، بل هي رسالة خطيرة ، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصديق التاريخ ، والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى » ، ثم قال : « وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها ، وإنني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة ، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها » ثم أورد الأستاذ « أحمد أمين » أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة الجملة ^(٢) ، كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصديق التاريخي ، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه ..

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

(٢) انظر نقد كتاب « الفن القصصي في القرآن » - للأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن (ص ٩٤) .

والمسلم الحق هو الذى يؤمن بأن القرآن كلام الله ، وأنه منزّه عن ذلك التصوير
الفنى الذى لا يعنى فيه بالواقع التاريخى ، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية
تُصاغ فى صور بديعة من الألفاظ المنتقاه ، والأساليب الرائعة .

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة فى الأدب ، وأدرك من عناصرها
الأساسية الخيال الذى يعتمد على التصور ، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع
كثر الشوق إليها ، ورغبت النفس فيها ، واستمتعت بقراءتها ، ثم قاس القصص
القرآنى على القصة الأدبية .

وليس القرآن كذلك ، فإنه تنزيل من عليم حكيم ، ولا يرد فى أخباره إلا ما
يكون موافقاً للواقع ، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زوراً
ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور
بكلام ذى العزة والجلال ؟

والله تعالى هو الحق : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ ﴾ (١) .

وأرسل رسوله بالحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (٥) .

﴿ وَالَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ (٦) .

وما قصّه الله تعالى فى القرآن هو الحق : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
بِالْحَقِّ ﴾ (٧) .

﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (٨) .

* * *

(٣) فاطر : ٣١

(٦) الرعد : ١

(٢) فاطر : ٢٤

(٥) المائدة : ٤٨

(٨) القصص : ٣

(١) الحج : ٦٢

(٤) النساء : ١٧٠

(٧) الكهف : ١٣

أثر القصص القرآنى فى التربية والتهذيب

عما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر ، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل ، ويرتاد العقل عناصرها فيجنى من حقولها الأزاهير والثمار .

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة ، وإلى أمد قصير ، ولذا كان الأسلوب القصصى أجدى نفعًا ، وأكثر فائدة .

والمعهود - حتى فى حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية ، ويصغى إلى رواية القصة ، وتعى ذاكرته ما يروى له ، فيحاكيه ويقصه .

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغى للمربين أن يفيدوا منها فى مجالات التعليم ، لا سيما التهذيب الدينى ، الذى هو لب التعليم ، وقوام التوجيه فيه .

وفى القصص القرآنى تربة خصبة تساعد المربين على النجاح فى مهمتهم ، وتمدهم بزيادة تهذيبية ، من سيرة النبيين ، وأخبار الماضين وسنة الله فى حياة المجتمعات ، وأحوال الأمم ، ولا تقول فى ذلك إلا حقًا وصدقًا .

ويستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذى يلائم المستوى الفكرى للمتعلمين ، فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وقد نجحت مجموعة القصص الدينى للأستاذين « سيد قطب والسحار » فى تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحًا معدوم النظير ، كما قدم « الجارم » القصص القرآنى فى أسلوب أدبى بليغ أعلى مستوى ، وأكثر تحليلًا وعمقًا ، وحبذا لو نهج آخرون هذا النهج التربوى السديد .

